جامعة بجاية

قسم اللغة والأدب العربي

محاضرات د لونيس بن علي في مقياس (أدب الهامش) طلبة سنة 3 أ

**المحاضرة 02**

**في جدلية المركز والهامش:**

**1 / الذات المتعالية:**

ننطلق في تحليلنا لهذه الجدلية من القاعدة التالية: الهامش مكون أساسي من مكونات المركز، بل لا وجود للهامش في غياب المركز، والعكس صحيح. والسؤال المركزي الذي يتبادر إلى الذهن هو: ما معنى المركز إذن؟ وما هي أنواع المراكز التي حددها الدرس الفلسفي؟

يكتسب "المركز" دلالاته من مجموعة من القيم: التعالي، المؤسسة، السلطة، المقدس، الهيمنة، الحضور، الذات، الأنا...إلخ الأمر الذي يعني بأنّ الهامش هو عكس هذه القيم تماماً.

ومن خلال هذه القيم يتأسس التاريخ الرسمي الذي هو " تاريخ سلطات مرجعية ومرجعيات سلطوية اكتسبت القداسة، ومارست الهيمنة والتخويف والإقصاء للمختلفين أو للمهمشين، فهي تقدم نفسها باعتبارها الثقافة الشرعية؛ لتؤسس ذاتها في مجرى التاريخ، وتقضي على آمال الآخرين بالصعود والتقدم، فلا تمنحهم فرصة أو مقدرة للتعبير عن ذواتهم، فهم في عرفها حثالة صرع البقاء، وآخر التشوهات في الجسد الاجتماعي القائم على الهيمنة والتراتب". (صالح، 2015، صفحة 70)

ويعتبر التاريخ الأوروبي تاريخا نموذجا يجسد فكرة "المركز" في أسمى تجلياتها وأبشعها كذلك، لأنّه تاريخ جعل من الذات الأوروبية مرجعا حضاريا وثقافيا وعقلانيا للإنسانية في صورها الكاملة، ولن تكتمل هذه الصورة إلاّ بإقصاء أشكال الوجود الحضاري والثقافي والإنساني المختلف، الذي يقع خارج دائرة الذات الأوروبية.

لقد أصبحت هذه الذات مرجعية لإنتاج نظام القيم، بوصفه النظام الوحيد الذي يحدد ما هو حضاري في مقابل ما هو بربري أو متوحش، وتحديد ما هو إنساني وما يقع خارج دائرة الإنساني، وحسب عبد الله إبراهيم فإنّ مفهوم المركز قد استمد "مكوناته من الدلالة المباشرة لـ egocentricity التي تفترض غلبة وجهة نظر الذات صوابها ... فيصعب عليه أن يفهم الأشياء من غير منظاره الخاص، ولا يُعطي أي اعتبار للآخرين واهتماماتهم، الأمر الذي يؤدي إلى أن يختلط لديه الموضوع بالذات". (إبراهيم، المركزية الغربية، 2010، صفحة 12)

ونفس النزعة، هي التي غذت الروح التوسعية لدى الأوروبيين، بوصفهم أسياد العالم، وأصحاب إرث إنساني يبدأ من العمق اليوناني وصولا إلى العصور الحديثة بكل ثوراتها العلمية والصناعية والسياسية. وليست الحركة الاستعمارية إلا إحدى التجسيدات التاريخية لهذه النزعة.

**2/ التمثلات المفاهيمية للمركز:**

**أ/ المركزية الإثنية:**

واضع هذا المُصطلح هو W.G.Summer وذلك سنة 1907م، ويعني "كل نظرة تجعل من الجماعة مركز الكل، وتقيس كل الجماعات الأخرى، أو تزنها، وتحكم على قيمتها بالإحالة إلى ذلك المركز". (الهرموزي، 2017، صفحة 442) وهي نزعة إيديولوجية تقصي كل الإثنيات المختلفة التي لا تطابق قاعدتها المعيارية.

تضع هذه النزعة "العرق" في مركز رؤيتها المتعالية للذات، من خلال التمييز بين الأعراق على أساس تفوق عرق على أعراق أخرى، لأسباب تاريخية وتارة لأسباب بيولوجية كما لو أنّ الطبيعةَ نفسها قد أوجدت هذا التمايز. وقد انعكست هذه النزعة على الثقافة فأصبغت كل شيء بصبغة عرقية، حيث يكون العرق بمثابة رؤية أيديولوجية وحضارية وثقافية، فيقال مثلا: ثقافة أوروبية، ثقافة إفريقية، ثقافة آسيوية.

وتاريخيا، كانت هذه النزعة إطارا مرجعيا ضمن إطارات أخرى لتبرير نزعة التفوق والاستعلاء للذات الأوروبية على أعراق أخرى، أو لقوميات بذاتها (الأمة الألمانية) جعلت من فكرة "صفاء العرق" مطية إيديولوجية لفرض نظام شمولي يدعي التفوق المطلق، وبذلك الحق في اجتياح العالم وتصفيته من الأعراق الطفيلية.

**ب/ الإنسانُ بوصفه مركزاً:**

أما "مركزية الإنسان" فهو مفهوم فلسفي يجعل"من الإنسان مركزا للعالم، وغاية قصوى في منظومة القيم والغايات، وتجد هذه النزعة الفلسفية أساسها الكوسمولوجي في مركزية الأرض، مثلما وجدت في الفكر الإنسي تسويغها الفلسفي؛ إذ أصبح الإنسان يُعدّ في نظر ممثليها قيمة أنطولوجية عليا وأنموذجا معياريا". (الهرموزي، 2017، صفحة 443)

وتجدر الإشارة إلى أنّ مفهوم "الإنسان" قد وٌلد في العصور الحديثة، بعدما ظل مفهوما هامشيا في أزمنة الإقطاع وسيادة الكنيسة، فكان الإنسان مجرد هامش وذات سلبية خاضعة على نحو مطلق لسلطة الدين. في هذه المرحلة، انقسم العالمُ إلى رؤيتين متناقضتين: رؤية تستمد سلطتها من الله، أي من المقدس، ورؤية تنتمي إلى قيم الأرض والوضاعة التي يمثلها الإنسان الناقص والخطاء والآثم.

كان ميلاد العصور الحديثة حدثا جللا، لأنه شهد تدمير للعلاقة العمودية بين السماء والأرض، لتخلق مركزا جديدا يمثله الإنسان. وبتعبير ميلان كونديرا، فإنّ الإنسان الحديث وُلد في عالم دون إله، تعبيرا عن أنه صار هو المركز.

**ج/ مركزية اللوغوس أو المركزية العقلية:**

يتكون مصطلح اللوغوسونتريزم من اللفظة اليونانية "لوغوس" التي تعني في الوقت نفسه العقل والكلمة. ولفظة سونتروم التي تعني "نقطة الارتكاز". وهو يعني "نزوع خطاب ما للانغلاق على ذاته، وعدّ مسلماته ومقدماته مرجعاً لصلاحية ومشروعية هذا الخطاب، بهذا المعنى فهي تُستعمل لوصف كل خطاب، يدور على نفسه، ويجعل مم يقدمه كمضمون مرجعا لإثبات وتأكيد هذا المضمون عينه". (الهرموزي، 2017، صفحة 446)

ما نفهمه في هذا المُصطلح أنّ العقل هو مرجع لكل قيمة ولكل خطاب، أي أنّ أي مصدر آخر للوعي وللإدراك يُعد مصدرا هامشيا، مثل الايمان، والحدس، والعواطف. والنزعة العقلية ظلت اختصاصا أوروبيا منذ اللحظة اليونانية، التي شهدت ميلاد الفلسفة بوصفها خطاب العقلانية، فكان العقل هو مركز الميتافيزيقا الغربية، ومرجعها في بناء التصورات المفاهيمية عن العالم.

كانت الفلسفة الأوروبية هي فلسفة العقل الذي يتوحد في الخطاب/ اللغة، وقد فرض نظاما من التقطابات الحدية، بين ما يمثل قيم العقلية التي تجسد الجوهر المتمثل في حضور صوت الذات، وهو حضور يؤسس لتمركزها وتعاليها.

**3/ ما بعد الحداثة وميلاد الوعي المضاد للمركز:**

ظهر الانتباه إلى الهامش في فلسفات ما بعد الحداثة أو ما بعد البنيوية، بعدما بلغت مركزية العقل مداها الأقصى، في شكل توقيع فلسفي لفكرة النهايات، والتي طالت نهاية الميتافيزيقا، وموت الإنسان، ونهاية النزعة الإنسانية...إلخ فقد كان القرن العشرون قرن الانتباه إلى الهامشيين بعد أن أصبح صوتهم يهدد المراكز، في شكل خطاب مضاد أو مقاوم؛ فكان هو قرن المقاومة والثورة ضد القوى المركزية: الثورة على الاستعمار، الثورة على الإضطهاد، ثورة النسوية، حركة السود الأمريكيين ضد نظام الميز العنصري.

لقد كان المناخ العام متخما بالحركات المناضلة التي قادتها الفئات المهمشة في المجتمع، مستثمرة تنامي خطابات حقوق الإنسان، أما على الصعيد الفلسفي، فقد صعد نجم ما بعد البنيوية، وعلى رأسها التفكيكية بريادة جاك ديريدا "منتقدة كثيراً من المفاهيم الميتافيزيقية التي تقوم على النزعة المركزية، داعية إلى الإنصات إلى المهمش والمسكوت عنه. ربما تفيدنا الممارسات الإبداعية / الثقافية لرواد ما بعد الحداثة في قراءة الهامش والهامشي وفق منظور تعددي مختلف، كما تفيد في الكشف عن إعادة الإنتاج المستمر للتيار المابعد حداثي في امتداده الضمني في الدراسات الثقافية وما بعد الكولونيالية والتفكيكية والنسوية الفرنسية.." (صالح، 2015، صفحة 62 ـ 63)

إنّ القوة الدافعة لما بعد البنيوية، وللتفكيكية تحديدا، هي التأكيد على فلسفة الاختلاف، والاهتمام بالقيم التي أهملتها الفلسفات الكلاسيكية منذ اليونان إلى العصر الحديث، حيث كانت الأولوية للعقل، والروح، والصوت، على حساب الجسد والكتابة وأشكال الوعي الأخرى مثل الاعتقاد والحدس والعواطف...إلخ ويتمثل اسهامات هذه النظرية في " الإدراك بأن اللغة تعتمد على تعارضات تراتبية...وبأن الحد الأول يكون متفوقا على الحد الثاني، في الوقت لذي يُدرك فيه الحد الثاني بوصفه تابعا للحد الأول". (مارشال، ط1 2010، صفحة 37)

**3 - مركزية الصوت: الصوت مركزا/ الكتابة هامشا:**

يشكل نقد مركزية الصوت فكرة أساسية في فلسفة ديريدا؛ إذ يعيد الاعتبار للمكتوب وللكتابة، بعدّ أنهما ليسا زوائد وملحقات على الكلام، بل إن للكتابة مكانتها وقيمتها الخاصة. وهو يُعدّ أنّ مركزية الصوت هي جزء من مركزية اللوغوس ... في الفكر الغربي الذي يعطي الأولوية والامتياز للحضور". (الهرموزي، 2017، الصفحات 444 - 445)

ذاع استعمال هذا المصطلح على يد ديريدا، في نقده للميتافيزيقا الغربية. لقد عبّر عن البنية العميقة التي تحكم تمثّل الفكر الغربي لماهية اللغة والخطاب. قامت هذه الأخيرة على تهميش الكتابة التي تأتي بعد الفكر والكلام.

"يرى ديريدا أنّ الخطاب الفلسفي الغربي منذ أفلاطون وعبر لحظات رئيسية يمثلها روسو وهوسرل وهيدجر إلى حد ما، يميل إلى إعطاء الأولوية القيمية للكلام مقابل الحذر تجاه الكتابة، وذلك لأنّ الكتابة تسهم في عدم استقرار المعنى، وفي تفكيك عناصره، وترفض فرض حضور المعنى". (الهرموزي، 2017، صفحة 445)

**في مفهوم العصيان:**

اهتم المفكرون وعلماء الاجتماع بظاهرة (العصيان) وعلاقتها بالفئات الاجتماعية التي اتخذت من التمرد على (المركز) فلسفة للحياة.

وقد مرّ هذا المفهوم بمرحلتين أساسيتين: يمثل المرحلة الأولى الموقف الذي يضع العصيان ضمن المظاهر الحيوانية في الإنسان، أو بتعبير آخر يجسد البعد المتوحش والبدائي فيه، والذي لا يمكن التحكم فيه ولا التنبؤ بأفعاله.

وبالنسبة للفيلسوف الفرنسي (ميشال فوكو) فإنّ الإنسان العاصي هو الذي لا يُمكن إصلاحه، أي هو الفرد العاجز عن الانصياع لمعايير الجماعة، سواء كانت سياسية أو اجتماعية أو حتى أخلاقية.

ويمثل هذه الفئة من الأفراد المنحرفون المتمردون الذين تمتلئ بهم الزنازين بسبب أفعالهم المتحدية للقانون العام.

ويمكن اختصار هذا المفهوم في التعريف التالي: ((هو الانزلاق إلى منحدر التوحش والاستسلام لتسهيلات الغريزة الفوضوية)). (غرو، 2019، صفحة 31)

وفي المقابل، تظهر (الطاعة) بوصفها المفهوم المناقض، أي هو الاحترام الكلي لقوانين المجتمع والسلطة معاً، ويرى أصحاب هذا الموقف أنّ الطاعة هي ما يثبت إنسانيتنا.

لهذا وُجدت المؤسسات الاجتماعية لأجل إرساء قواعد الطاعة كشرط من شروط التنشئة الاجتماعية، وكلما كان الفرد مطيعا كلما أثبت إنسانيته في نظر السلطة والمجتمع.

فالأنظمة السياسية في العالم، مهما ادعت أنها أنظمة ديموقراطية، فهي تسعى إلى فرض الطاعة لعمياء كنوع من التربية السياسية للأفراد لقبول القوانين حتى لو كانت مجحفة في حقه.

غير أنّ تجربة القرن العشرين مع الأنظمة الفاشية والشمولية وما مارسته من قمع واستبداد قد أعاد النظر في المفهومين، أي مفهوم (العصيان) ومفهوم (الطاعة)؛ فقد كشفت عن الوجه المريع للطاعة العمياء، التي بلغت درجة ارتكاب الجرائم باسم هذه الطاعة العمياء للحاكم أو الزعيم. ((لقد أشعرت التجربة الشمولية إبان القرن العشرين بوجود فظاعة غير مسبوقة؛ فظاعة الموظف المتزمت والمنفذ الذي لا غبار عليه)). (غرو، 2019، صفحة 36)

وفي هذا السياق، تخلصت الطاعة من قيمتها الإنسانية، وانتقلت إلى العصيان؛ فالفرد الذي يرفض تنفيذ أوامرا بقتل مجموعة من الأشخاص أصبح يجسد القيم الإنسانية الحقيقية. فالعصيان هنا، لم يعد ذلك الجانب الحيواني في الإنسان، بل هو على العكس من ذلك تماما. ((فجأة يظهر العصيان الذي يؤنسن)). (غرو، 2019، صفحة 36)

يظهر العصيان في هذه السياقات بوصفه (مقاومة) لهيمنة المراكز، واستبداد السلطة بكل أشكالها. وكما هناك مقاومة مادية من خلال السلاح فهناك أيضا مقاومة بالمعنى الثقافي والأدبي.